

الميديا و الهوية الثقافية في ممارسات المجتمع التّواتي زمن العولمة

د. أم الخير حنيني

جامعة ادرار

تتناول هذه المقالة بالتحليل ظاهرة الميديا (وسائط الاتصال الجماهيري) في مضمونها الثقافي، وتأثيراتها على الهوية الثقافية للمجتمع التّواتي زمن العولمة، وكيفية تفاعلهم مع مظاهرها من خلال التّحولات والتّغيرات الحديثة التي أفرزتها الظاهرة بفعل العولمة. وفيها تم تقديم مستفيض لمعنى مصطلح الهوية الثقافية باعتبارها تمثل الكيان الشّخصي والروحي للفرد، فهي المحرك الأساسي لأي حضارة أو أمة، في المقابل أصبحت الميديا تحمل مضمون فكري جديد يهدف لنشر ثقافة كونية واحدة تحت غطاء العولمة، لأنها تعد من الوسائل والأدوات الأساسية التي بها تنتشر وتتغلغل فيها، وتركيزها على حدود العلاقة بينها وبين الهوية الثقافية للمجتمعات.



Summary

The present article deals with the analysis of Media (Mass Communication) as a phenomenon from the cultural perspective. It highlights its impacts on the cultural identity of the Algerian Touat society during the globalization era. It also describes how this society interacts with media's appearances through its modern transformations that it witnessed due to globalization.

Accordingly, the article defines the concept cultural identity which depicts the personal and spiritual entity for an individual. On the one hand, it is the main engine for any civilization or nation. On the other hand, in its modern intellectual content, media aims at publishing one cosmic

culture under the cover of globalization for it is considered one of the main means that determines the relation between the cultural identity and societies.

المقدمة:

يعد الاتصال فطرة جبر عليها الإنسان منذ وجوده على الأرض، إذ حرص على التواصل مع المحيطين به، وأخذ يكتشف طرقه ووسائله، ولا يهنأ بما توصل إليه ، بل يسعى إلى التغيير والتسيير أكثر فأكثر، فغدت وتيرة الاختراعات في تطور مستمر لا تنقطع أبداً ، وربما آخر حلقة من هذه السلسلة هي الشبكة العنكبوتية أو بالأحرى الدولية، التي سلبت عقول الكثيرين بسحرها القوي، وعجزت الأغلبية عن مقاومتها، فكان الاندماج والإدمان في عالمها، وفي عالم المعلومة الفورية، والصورة الجاهزة، والتواصل السريع.

وأدت هذه الوسائل المستحدثة والتقنيات الجديدة إلى إلغاء سابقاتها وإزالتها بشكل كلي من المجتمع، وأصبحت هذه التقنيات أكثر فاعلية وجاذبية، بخلق فضاء مفتوح لنقل المعرفة والثقافة، وتقارب البشر في مختلف البلدان، وزيادة وتحديد اهتماماتهم في مجالات عديدة سياسية، أو اقتصادية، أو معرفية، أو ثقافية، كانت بعيدة عنهم فيما سبق، زاد من فاعليتها التتبع الإعلامي الذي تمارسه الميديا الرسمية والربحية أحيانا والصورة المزيفة غالبا، مما جعل الكثيرون يلجؤون لوسائل الاتصال الرقمية كوسائل بديلة أو إعلام بديل، لما له من اثر ايجابي زاد من عطاء الإنسان في التعرف على غيره من الناس، ومشكلاتهم، وقضاياهم، ومشاركتهم في الشأن العام، والاستفادة من تجارب الآخرين، مما أصبح للاتصال الرقمي أثارا بارزة في نشر مفاهيم وقيم جديدة وخلق حراك فكري وثقافي، أهم سماته الحوار والتمحّص والتفكير والبحث، الأمر الذي جعل دوره أساسيا لا يمكن تجاهله في تنسيق الأدوار وقيادة الرأي العام خاصة في القضايا الفكرية.

فوسائل الاتصال الحديثة اليوم أصبحت تمتلك القدرة على البناء وترسيخ القيم، كقدرتها أيضا على الهدم وإبدال القيم لما لها من تأثير على المجتمع المتلقي، ويتجلى ذلك في كونها وسائل تقوم بدور حيوي في نشر ثقافة عامة وموحدة بين

فئات وشرائح المجتمع الواحد، فاستعمالها بشكل مكثف، يعد عاملا من عوامل التغيير الاجتماعي الحاصل، وأيضا من عوامل التأثير والتأثير الثقافيين، فمستعمل هذه التقنيات لابد وان يتأثر بها وبمضمونها، كما انه يؤثر هو بدوره على غيره من الأفراد عبر الاحتكاك والتفاعل معهم. ونظرا للأهمية التي تضطلع بها هذه الوسائل، فقد اهتم لها الجميع من كبار وصغار، وصار كل فرد بينهم يفرد لها مساحة من الزمن لمتابعتها، خاصة البرامج التي تتوافق مع رغبة كل فرد.

ومن دون شك فإن الميديا، أصبحت تؤدي بجدارة مهمة الترويج للقيم الثقافية للعولمة، ونشرها¹ في مختلف مناطق العالم، لاسيما وسائط الاتصال الحديثة منها، فهي قادرة على تحقيق مساعي العولمة كتنميط لثقافات الشعوب، وقادرة على تجسيد ما يرمي إليه الإعلام الغربي المعولم، خاصة الانترنت التي يعتبرها العديد من المختصين وسيلة لنشر قيم العولمة بجدارة، وتحقيق غاياتها خاصة في المجال الثقافي، فلا توجد وسيلة إعلامية في عصرنا الحالي أهم وأنفع منها للعولمة بكل أشكالها لاسيما شقيها الثقافي والإعلامي، فهي بمثابة العربة التي تنقل عدة ثقافات، وقيم وأنماط سلوكية ومضامين لعدة متلقين في كل أنحاء العالم بكل سهولة وبأقل تكلفة، خاصة وقد أصبحنا في عصر غير قادرين على التحكم في التدفق الهائل من المعلومات والمضامين الثقافية المختلفة عبر وسائل اتصالية وتكنولوجيات حديثة، التي أصبحت تشكل اكبر خطرا على الثقافات المحلية للمجتمعات، من خلال تسويق قيم ثقافية ومبادئ وسلوكيات تتنافى مع منظومة قيمنا المحلية، وفي عصر كذلك اتسم بانسياب سيل جارف من القيم والسلوكيات والعادات من الطرف الآخر أو من الضفة الأخرى (الغرب).

ومما لا شك فيه أن العدو الأول للهوية الثقافية والقيم المحلية هي العولمة وقيمها الثقافية المرفقة، التي تلوح في أفق كل بلد أو مجتمع يتعرض للزخم الهائل من المضامين الثقافية، التي تبثها ترسانة الإعلام الغربي الجارف، والذي لا يترك مجالا للمتلقي الاختيار والانتقاء بين الغيث والسمين، وبين النافع والضار، لأنه اجتياح فكري واكتساح ثقافي تتعرض له مجتمعاتنا المغلوبة على أمرها، والتي لا تملك إلا أن

تستقبل وتمتص ما ينتج ويسوق من صناعات ثقافية كالأفلام والبرامج الوثائقية والمسلسلات والرسوم المتحركة.

لقد أصبح مجتمعنا الجزائري والمجتمع التواقي خصوصا كالإسفنج الممتص، التي لا تترك قطرة ماء إلا وامتصها، لأنه يستهلك تقريبا كل ما ينتج في الضفة الأخرى، والأخطر من ذلك هو في الاعتقاد أن كل ما يقدم جيد ولا يعتريه النقص والخلل، لأنه ببساطة غربي ويصلح للاستهلاك والسّير على عجلة التّقدم والتّطور. وأمام هذه القضية لسائل أن يتساءل إلى أي مدى أثرت الميديا في الهوية الثقافية للمجتمع التّواقي؟

وتفرعت عنه مجموعة من الأسئلة الفرعية تمثلت في :

- ما المقصود بالهوية الثقافية؟ وفيما تتمثل مرجعيتها؟
- ما واقع الهوية الثقافية في المجتمع التّواقي؟
- ما تأثير العولمة على الهوية الثقافية للمجتمع التّواقي ؟ وماهي المخاطر التي تهدد كيانها؟

أولا- مفهوم الهوية الثقافية :

1-تعريف الهوية:

أ- الهوية لغة: توحى لفظة الهوية في معناها الشّامل إلى "الذات"، والأصل والانتماء والمرجعية، فهي كلمة مأخوذة من الضمير "هو، هو"، بمعنى أنها جوهر الشيء وحقيقته²، أي أن هوية الشيء ثوابته، وأيضا مبادئه.

ب- الهوية اصطلاحا: تعرف الهوية على أنها الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النّواة على الشّجرة وثمارها، فهوية الإنسان أو الثقافة أو الحضارة هي جوهرها وحقيقتها. ولما كان في كل شيء من الأشياء أنسانا أو ثقافة أو حضارة "الثوابت" والمتغيرات"، فإن هوية الشيء هي ثوابته التي تتجدد ولا تتغير، تتجلى وتفصح عن ذاتها دون أن تخلي مكانتها لنقيضها، طالما بقيت الذات على قيد الحياة .

فالهوية كالبصمة بالنسبة للإنسان، يتميز بها عن غيره، وتتجدد فاعليتها ويتجلى وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارئ الطمس والحجب دون أن تخلى مكانها ومكانتها لغيره من البصمات³.

ويمكن تعريف الهوية بأنها كيان يصير و يتطور إما في اتجاه الانكماش أو في اتجاه الانتشار، وهي تعني بتجارب أهلها ومعاناتهم وانتصاراتهم وتطلعاتهم⁴، ومن ثم فإن الهوية تعني كيان أمة أو جماعة أو طائفة تنطلق منها نحو سموها العقدي، والقيمي، والأخلاقي، ونشأ عليها الأجيال، وتبنى عليها حضارة أمة ولا يقبل المساس بها، وتعتبر مصدر تلق لدى الأجيال القادمة، كما أنها تتكون من العقول البشرية على ضوء منهجية تلك الهوية الثقافية المكتسبة.

يرى "مانويل كاستلز" الهوية على أنها: عملية بناء المعنى على أساس خاصية ثقافية، ثم يستطرد قائلاً أن من يبنى الهوية ويضع أهدافها، هو الذي يقرر إلى أي حد كبير يتضمن المحتوى الرمزي لهذه الهوية، ومعناها بالنسبة لمن يتماهون معها أو يضعون أنفسهم خارجها.

وتذهب بعض الدوائر إلى أن الهوية: هي كل ما يعبر عن تفرّد المجموعات، وما يمنعهم من الصّراع الفكري أو العملي، ويسمح ببقاء الحدود التي تفصل بين الجماعة، ويترجم العلاقات المتبادلة بين الحقائق العضوية، والحقائق الدينية، والجمالية، والسياسية، وحقائق النسب، فهي عملية تنتج عن التفاعل بين الإنسان والمؤسسات الاجتماعية التي يعيش في إطارها.

2- تعريف الثقافة:

أ-الثقافة لغة: يعود أصل الثقافة إلى كلمة "ثقّف" في اللغة العربية، بمعنى "قوّم الشيء" أي قوّمه عندما كان معوجاً وغير سوي، فقال العرب "ثقّف الرّمح" أي "قوّمته"⁵ بمعنى جعله على أحسن صورة، وأيضاً يأخذ هذا المصطلح معنى الإصلاح وإعادة الشيء على حاله، وأيضاً معنى التصحيح.

وفي النّسق الفكري الإسلامي تعني الكلمة كل ما يسهم في عمران النّفس وتهذيبها، فالنّتقيف من معانيه التّهذيب، فإذا كانت المدينة هي تهذيب الواقع بالأشياء، فإن

الثقافة هي تهذيب النفس الإنسانية بالأفكار، والعقائد، والقيم، والآداب، والفنون، وكلاهما: الثقافة والمدينة عمران للنفس وعمران للواقع، لذلك مثلاً شقي الحضارة التي هي العمران، وسبب من علق الثقافة واختصاصها بعمران النفس الإنسانية وتهذيبها، وتميزت الثقافات بتمايز الحضارات، وقد جاء مبعث التمايز في الثقافات كثرة لتمييز النفس الإنسانية، في كل حضارة من الحضارات، وذلك لتمييز المكونات والمواريث، والعقائد، والفلسفات، والعادات، والأعراف التي مايزت بين "البصمات الثقافية" في أهم هذه الحضارات.⁶

ولقد استعمل العرب كلمة الثقافة للدلالة على معان متعددة "كالحدق"، وسرعة الفهم، والتهذيب وتقويم المعوج... وغيرها من المعاني.⁷ فالثقافة بهذا المعنى تعبر عن الحاصل المركب الذي يشمل المعرفة، والمعتقدات، والفنون، والأخلاق، والقوانين، والتقاليد، وجميع القابليات والعادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضو في المجتمع، وهذا يعني أن الثقافة ليست سجلاً لآثار الماضي وتراثه بقدر ماهي عماد الحاضر وأساس المستقبل، لأنها طريق حياة المجتمع، وهي في نفس الوقت أداة لتطوير الحياة.⁸

ب- الثقافة اصطلاحاً: أما اصطلاحاً فتعني الكلمة ذلك التراث الحضاري، ومنهجية التفكير، وأسلوب العيش والمعاملة أي كل تلك الأمور، التي تنطلق من ذاتية وشخصية الإنسان بماهو عليه من صفات كالخير والعدل... الخ، وتلك الطاقة العملية الكامنة التي تستخدم في مجالات الحياة، وبفضلها تميز مجتمع عن آخر.

ف نجد "مالك بن نبي" يعرف الثقافة، في كونها أسلوب الحياة في مجتمع معين، تخص السلوك الجماعي الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع، بل هي حياة المجتمع التي بدونها يصبح مجتمعا ميتاً¹⁰، فداخل كل مجتمع متحرك تتم عملية تركيب ثقافته بصورة تلقائية، تنحصر في تنظيم المقومات الثقافية، وفي وحدة متجانسة تمثل ثقافته، فأساس كل ثقافة هو بالضرورة تركيب وتأليف لعالم الأشخاص، وهو تأليف يحدث طبقاً لمنهج تربوي يأخذ صورة فلسفية أخلاقية. إذا فالأخلاق أو الفلسفة الأخلاقية هي أولى المقومات في الخطة التربوية لأية ثقافة¹¹، ثم إن الفرد المنعزل، لا

يمكن أن يستقبل الثقافة، ولا أن يرسل إشعاعها، والأفكار والأشياء لا يمكن أن تتحول إلى عناصر ثقافية، إلا إذا تألفت أجزاؤها، فأصبحت تركيباً فليس للشيء المنعزل أو الفكرة المنعزلة معنى أبداً¹².

إن الثقافة حسب "ابن نبي" دائماً هي "نظرية في السلوك" أكثر مما هي نظرية في المعرفة، وبها تكون الثقافة أعم من التعليم نفسه، وأعم من المعرفة والأفكار و أوثق صلة بالشخص، فهي عموماً مجموع الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، وهي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته¹³. وعند "محمد العابد الجابري" أن الثقافة هي: ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتطورات، والقيم، والرموز، والتعبيرات، والإبداعات، والتطلعات التي تحتفظ لجماعة بشرية تشكّل أمة أو ما في معناها بهويتها الحضارية في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية، وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء... إن الثقافة هي المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية للأمة من الأمم، عن نظرة هذه الأمة إلى الكون، والحياة، والموت، والإنسان ومهامه، وقدراته، وحدوده، وما ينبغي أن يعمل وما ينبغي أن يأمل¹⁴.

فهي بذلك تعد المكون الأساسي الذي يقوم عليه تاريخ أو حضارة أو أمة من الأمم، فليس لأي أمة وجود ما لم تكن هناك ثقافة مليئة بمنجزات، وتجارب، ومهارات نتيجة لنشاط عقلي، وفكري لكل الجوانب المادية، والمعنوية التي تبين متانة وحصانة، وقوة هذه الأمة في كل المجالات.

3- تعريف الهوية الثقافية:

وإذا ما تسألنا عن معنى الهوية الثقافية من كل ذلك نجدها تعني تلك المبادئ الأصلية السامية والذاتية، التي تميز الفرد بنفسه عن غيره، أي تحديد الشخصية، ومن السمات التي تميز الأفراد بعضهم عن بعض. بالإضافة إلى تلك الركائز التي تمثل للفرد كيانه الشخصي، والروحي، والمادي بتفاعل صورتها هذا الكيان، لإثبات هويته أو

شخصية الفرد أو المجتمع أو الشعوب، بحيث يحس ويشعر كل فرد بانتمائه الأصلي لمجتمع ما، يميزه عن باقي المجتمعات الأخرى.

فالهوية الثقافية عند المفكر الفرنسي "اليكس ميكافلي" **Alex Mikafili** : تمثل منظومة متكاملة من المعطيات المادية، والنفسية، والمعنوية، والاجتماعية، تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي، وتتميز بوحدها التي تتجسد في الروح الداخلية، التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها، كما أن الهوية الثقافية تمثل ذاتية الإنسان ونقاءه، وجمالياته وقيمه الاجتماعية، بحيث تعتبر الثقافة بمثابة المحرك لأي حضارة أو أمة في توجيهها، وضبطها أي هي التي تحكم حركة الإبداع، والإنتاج المعرفي¹⁵.

ومن المفاهيم التي قدمت للهوية الثقافية كذلك ما تبنته منظمة اليونسكو، والذي ينص على أن الهوية الثقافية تعني أولا وقبل كل شيء أننا أفراد ننتمي إلى جماعة لغوية محلية أو إقليمية أو وطنية، بما لها من قيم أخلاقية وجمالية تميزها، ويتضمن ذلك أيضا الأسلوب الذي نستوعب به تاريخ الجماعة، وتقاليدها، وعاداتها، وأسلوب حياتها، وإحساسنا بالخضوع له والمشاركة فيه، أو تشكيل قدر مشترك منه، وتعني أيضا: الطريقة التي تظهر فيها أنفسنا في ذات كلية، وتعد بالنسبة لكل فرد منا نوعا من المعادلة الأساسية التي تقرر بطريقة إيجابية أو سلبية، الطريقة التي ننتسب بها إلى جماعتنا والعالم بصفة عامة¹⁶.

وذكرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: أن الهوية الثقافية هي " النواة الحية للشخصية الفردية والجماعية، والعامل الذي يحدد السلوك ونوع القرارات، والأفعال الأصلية للفرد والجماعة، والعنصر المحرك الذي يسمح للأمة بمتابعة التطور والإبداع، مع الاحتفاظ بمكوناتها الثقافية الخاصة وميزاتها الجماعية، التي تحدت بفعل التاريخ الطويل واللغة القومية، والسيكولوجية المشتركة وطموح الغد"¹⁷.

4- مكونات الهوية الثقافية:

تستمد الهوية الثقافية مقوماتها من عناصر راسخة، شكلتها ثوابت جغرافية تعكس هذا الامتداد الجغرافي دون عوائق طبيعية، ومتغيرات تاريخية يتيح الرجوع إليها

فهما أعمق للمستقبل وتطلعات نحو المستقبل، تكاد تكون قاسما مشتركا بين أبناء المجتمع، وتراثاً مركباً قاعدته الراسخة قوة الاعتقاد ووسطية في السلوك، تترجم معاني التسامح رغم التباين في الأعراق والأنساب والمعتقدات، ولغة عربية هي بوثقة الانصهار الفكري والوجداني لأمة عربية واحدة.¹⁸ وهذا معناه أن الهوية الثقافية تتكون من عدة عناصر مرتبطة ببعضها، وأي خلل في أحدها يؤدي إلى خلل في باقي مكوناتها، ومن أبرز هذه المكونات :

1- العقيدة أو الدين:

يعد الدين أول عنصر من عناصر الهوية الثقافية، فهو الذي طبع ويطبع، وصبغ ويصبغ ثقافة المجتمع بطابعه وصبغته، فعاداتنا وتقاليدها، وأعرافنا، وآدابنا، وفنوننا، وسائر علومنا الإنسانية والاجتماعية، وفلسفة علومنا الطبيعية، والتجريبية منها، ونظرتنا للكون، وللذات وللآخر، وتصوراتنا لمكانة الإنسان في هذا الكون... من أين أتى؟ وإلى أين ينتهي؟ وحكمة هذا الوجود ونهايته؟... الخ، ومعايير المقبول والمرفوض بين الحلال والحرام في المسيرة الحياتية لإنساننا كل ذلك وما مثله، قد إنطبع بطابع الدين (الإسلامي)، واصطبغ بصبغته حتى نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون كل الاطمئنان أن ثقافتنا إسلامية الهوية، وأن معيار الدّخول والخروج في ميدان ثقافتنا، والقبول والرفض فيها هو المعيار الإسلامي.¹⁹

2- اللغة:

ومع الدين في مكونات الهوية الثقافية تأتي اللغة، اللسان الثقافي الأساسي للهوية الثقافية للأفراد أو الشعوب، وهي عامل يبين اختلاف ثقافة عن أخرى، وهي أسلوب للتواصل وللاحتكاك، وإثبات الهوية وتأكيداتها. وقد جاءت نظرية صدام الحضارات لتعلن أن العدو الأول للحضارة الغربية هو الإسلام، وأن الثقافة الإسلامية المرتكزة على اللغة العربية ذاتها هي المنافس لتلك الحضارات.²⁰

3- التراث التاريخي أو التاريخ:

فالتراث التاريخي يميز هو الآخر في حضارتنا الإسلامية بأنه تاريخ الأمة، كما هو تاريخ الدين، ووعاء الذكريات الحافظ لخلود الأمة عبر الزمان، والمكان، حيث يمثل

التاريخ والماضي المشترك للأفراد أو لشعب ما عنصرا يعبر عن هوية أساسية، فالتاريخ يبين حقيقة الاستعمار المتجدد في العولمة، كما أن التاريخ هو من يبين عناصر الهوية، باعتباره يدرس الماضي، ويقف على الحقائق، وتستند إليه الدول والشعوب للتطلع لبناء الحاضر والى المستقبل.

4- المنطقة الجغرافية:

إن تحديد المنطقة الجغرافية يترتب من خلالها تحديد الحدود الطبيعية لأي أمة من الأمم، بما تتضمنه من عرقيات و قوميات وشعوب، بحيث تجمعهم ظروف ومصير وأهداف واحدة.

ثانيا- العولمة:

لقد انتشر الحديث في الآونة الأخيرة عن ظاهرة العولمة، إذ حفلت بها الكتب والندوات والمقالات والمقتنيات، واعتبرت ظاهرة واسعة المفهوم عسيرة التحديد والتعريف، لكونها ظاهرة معقدة ومتشعبة، فلا يكاد يمر يوم لا تقع فيه العين على مفهومها في الكتابات والمقالات الصحفية، وفي المجلات والدوريات المتخصصة، كما لا يكاد يمر يوم لا يسمع فيه السامع هذا المفهوم في الحوارات، والأحاديث الإذاعية أو التلفزيونية، لهذا بالتحديد اهتم الباحثون والمختصون على تشخيص هذه الظاهرة وقراءتها كل على حسب رؤيته وإيديولوجية، وذلك قبل أن يكتسب المصطلح دلالات إستراتيجية وثقافية مهمة من خلال تطورات واقعية عديدة شهدتها العالم منذ أوائل التسعينات، فالإقتصاد فسرّها على حسب اهتماماته ومستجداته الاقتصادية، التي طغت عليها تطورات التكنولوجيا، وتأثيراتها على سياسات الدولة، أما عالم الاجتماع فهمه الوحيد هو وضع المجتمعات في عالم النظام العالمي الجديد، والتغيرات الحاصلة، التي طرأت في المنظومة الاجتماعية، وقيمتها من تطورات أو تراجع أفقي.

ولا شك أن البعد الاقتصادي للمفهوم هو الذي يحظى بنصيب الأسد من النقاش والاهتمام، ولا شك أيضا أن الاقتصاد كان ولا يزال أهم دوافع الإنسان للعمل

وللنشاط، ذلك أن البعد الاقتصادي يعد المهد الأول لولادة العولمة والراعي الأول لانتشارها.

أ- معنى العولمة (لغة):

توحي لفظة العولمة أو الكوكبة (Globalisation) إلى جعل العالم ذا توجه واحد مسيطر عليه تقنيا وثقافيا في إطار حضارة واحدة، وهو المعنى الذي حدده المفكرون باللغات الأوروبية للعولمة (بالإنجليزية والألمانية)، وعبروا عن ذلك بالفرنسية (Mondialisation) بمعنى جعل الشيء على مستوى عالمي. في المقابل وضعت كلمة العولمة في اللغة العربية للدلالة على هذا المفهوم الجديد²¹. ويعرفها المعجم الإنجليزي "ويبسترز" Webster's العولمة globalization بالقول:

Ormake scopeTo globalize: to make global, Especially To Application world wide

وهذا يعني بالعربية: إكساب الشيء طابع العالمية، وخاصة جعل نطاق الشيء أو تطبيقه عالميا²².

ب-العولمة اصطلاحا: أما اصطلاحا فهي تعبر عن تطورين هامين هما :

1- التحديث (modernity)

2- الاعتماد المتبادل "inter-dependence"

ويرتكز المفهوم العولمة بمعناه الشامل على التّقدم الهائل في التّكنولوجيا والمعلوماتية (تكنولوجيا المعلومات)، بالإضافة إلى الروابط المتزايدة على كافة الأصعدة على السّاحة الدولية المعاصرة. ومن خلال المتابعة للأدبيات العولمة، وتعدد تعريفاتها وتباين الآراء حول فهم العولمة، فهناك من ينظر إليها على أنها ثورة علمية تكنولوجية واجتماعية، وهذا التعريف يركز على أن الفكرة هي فكرة الثورة التكنولوجية والاجتماعية والاتصالية، التي تتضمن تحرير الأسواق، وإزالة القيود المحيطة بها. ونشر التكنولوجيا والتّوزيع العابر للحدود، ولإنتاج، والمصنع، والاستثمار الأجنبي المباشر، وتكامل أسواق رؤوس الأموال، فالنّشاط الاقتصادي يعتبر من أبرز مظاهر النّشاط

الإنساني تأثرا بعولمة الثقافة والإعلام واستفادة منها، فغالبا ما يتبادر إلى أذهاننا عند الأخذ في موضوع العولمة (العولمة الاقتصادية)، التي تعد الأكثر اكتمالا والأكثر تحققا على أرض الواقع من كافة تجليات العولمة الأخرى²³. لكن ما يلاحظ في الآونة الأخيرة أن العولمة التكنولوجية والاتصالية أصبحت من بين اكبر المنافسين للعولمة الاقتصادية.

ويعد "مارشال ماكلوهان" أول من استخدم مصطلح العولمة معنيا وذلك حين صاغ في نهاية الستينات مفهوم القرية الكونية "village" global " مبشرا بتقلص المجتمع الإنساني إلى قرية كونية صغيرة تتشابه بفعل ثورة المعلومات والتطور التكنولوجي الهائل لوسائل الإعلام .

فالعولمة بدأت في مجال الإعلام، وفي رحابه يقع المعنى الدقيق للمصطلح، وتصبح بقية العولمة الأخرى مجرد تجليات له، فلا وجود لعولمة سياسية اقتصادية أو اجتماعية دون قوة ثقافية إعلامية تتيح لمن يمتلكها بسط النقود ومصلحه²⁴. كما أن أهم ما يميزها هو طابع الهيمنة والسيطرة، مما جعل الكثير من الباحثين يوجهون لها أسهم النقد، ويعتبرونها أمركة أكثر منها عولمة، ونسقا أكثر منها نظاما. إذ انتقد مفهوم القرية الكونية والعبارة الشهيرة التي تعلمناها في مؤسساتنا التعليمية "العولمة جعلت العالم قرية صغيرة". لأن العولمة لما تحققت على أرض الواقع كانت نسقا أكثر منها نظاما، لذا يمكن نعتها بالقرية، لأن القرية تحمل معنى التراحم والتكافل والحميمة والكثير من الأمور الجميلة عكس النسق الذي يحمل معنى الحرية والقسر. أما "رجيس دوبريه" فيذهب إلى أن العولمة زادت العالم تشرذما بازدياد وتأثر توحيده. ويقصد بذلك أنه كلما تعمقت الكونية الاقتصادية إلا وتشرذمت معها الأبنية السياسية والاجتماعية. وكلما زادت عولمة الاقتصاد إلا وبرزت النزاعات القومية، محاولة الدفاع عن الانتماء المهدهد بفعل الكونية المفروضة من الشمال من قبل الو.م.أ وعلى جميع أنحاء العالم، تعميم نمط الحياء والفكر الأمريكي لشمالى. لذلك ف"رجيس دوبريه" يرى في العولمة على أنها عولمة زائفة لا تبادل فيها بالمثل، بل الأمر يتعلق بتعليق ثقافة الضعيف بثقافة القوي.²⁵ أما "زيجلر" فيرى أن مشكلة العولمة تتمثل في توحيد العالم

وفق نمط عالمية السوق، وليس عن طريق إيجاد هوية جمعية موحدة، حيث يقول: " أن عالمية السوق، وتسلسل فقرها المدقع تستنهض في أثر معاكس حركات تتمسك بالهوية، لها الطابع المحلي بالضرورة، لأنها تستمد جذورها من معين سلفي يتميز بوهن بنيانه المفهوم لكنه عميق جدا²⁶. وهذا ما جعل بقية الدول أو دول الجنوب بالخصوص تقف في الكثير من الأحيان متمردة بين أن تنخرط في عالم العولمة أو تقاومها، وذلك بالابتعاد عن التطورات العالمية خشية من تلوث خصوصياتها الثقافية، والاتحاد مع النزاعات القومية المتطرفة في محاولة لإيقاف سيل الكونية، لذلك نجد "رجيس دوبريه" يرى أن تحديث الأبنية الاقتصادية أحيانا يحوي سلفية ذهنيات²⁷.

ويعد "علي حرب" من بين الذين رحبوا بالانخراط في عالم العولمة كونها حدثا واقعيا تعيشه، ولا يمكن الهروب منه أو إنكاره، لذا فالأجدر التفاعل معها وتقبل هذا الوجود الكوني الجديد، الذي جلب للإنسان أمورا إيجابية ولكنها في الوقت نفسه خطيرة تهدد حياة البشر، هذه المتغيرات هو تحول الواقع إلى واقع افتراضي، صار اقتصادا معرفيا، والعالم أضحى عالما أذاتيا، أما الحقيقة فأصبحت خيالا ميدياتيكيا، واللغة صارت لغة رقمية، وهذا ما أدى بهذا الواقع الجديد إلى التغيير في الهويات وتحريفها، واقتصادها في الصلات الأليفة والحميمة، وزعزعت ثقة المرء بالمرجعيات التي تشكّل أطر الإنسان ومعايير العمل، وكلما ازداد هذا النسق انتشارا، كلما أسر الإنسان فيه أكثر وضاعت هويته أكثر²⁸. ولكن هذا الانخراط سيكون صعبا في أغلب الأحيان، لأن العولمة كما يقول "هابر ماس" لا تفرض تكافؤ، وأن واقعها لا يلتزم بشروط الحوار، أو منطق الخطاب المبرهن، بل يفتقد للصّلاحية والمسؤولية والصّدق والمعقولة، وكافة أشكال التعامل العقلاني أو أخلاقيات التّواصل²⁹.

ثالثا- الهوية الثقافية في ممارسات المجتمع التّواتي:

إن محاولة رصد ملامح وظلال الهوية الثقافية للمجتمع التّواتي القصوري، لا يمكننا رصدها بمعزل عن تعرية تلك التّظاهرات العرقية والقبلية والسوسيوثقافية للجماعة التّواتية القصورية³⁰، التي شكّلت صباغة وطلاءا بارزا لها، بفعل انصهار الإثنيات الثلاث: الأمازيغية، والإفريقية، والعربية، فأنتج عنه تنوّعا ثقافيا ثريا، أضفى

عليها طابعا فريدا من نوعه، وأعطى لها مكانة معتبرة، ميزت منطقة توات عن باقي المناطق الأخرى، وساهمت في تشكيلها الهويات الإثنية، فلكل عرق أو تركيبة سكانية داخل المجتمع جاءت لتوات إلّا وحملت معها مكوناتها وخصائصها، امتزجت وانصهرت، مشكلة من خليطها مكونات هوية المجتمع التواتي القصورى.

فتضاريس المكان وجغرافيته، قد طبعته المظاهر الاجتماعية بملامح لا يمكن إغفالها، والتي اعتبرت لسنوات طوال جزءا مهما في بناء هوية محلية، تعبر عن ممارساتهم وطقوسهم الحياتية، كطبيعة المعمار القصورى للقصبات الطينية والواحات، وارتباطاتها بالتحصينات الدفاعية للغارات، التي كانت في السابق تشن وتسلب الأهالي أرزاقهم في ذلك الوقت، ذلك أن هوية المجتمع التواتي القصورى، نتجت بفعل انخراطها في التظاهرات العقديّة، والاجتماعية، والثقافية والإثنية، وطريقة العمران، واللباس التقليدي البسيط، وغطية العيش، والتفكير القبلي، والعادات، والأساطير الجمعية للذاكرة التواتية، فالبنايات الطينية للقصور والقصبات تعتبر إحدى الصبغات والطلاءات البارزة في المنطقة، باعتبار أن القصور هي الهوية الحقيقية للمجتمع التواتي والمستمدة من ثقافته. ذلك أن ارتباط الثقافة بالمجتمع ارتباط متلازم، إذ لا يمكن أن نفهم مجتمعا، إلا بفهم ثقافته، كما لا يمكننا فهم ثقافة أي مجتمع إلا بفهم المجتمع ذاته وتركيبته، سواء كان ذلك في جوانبه الثابتة كالأديان والقيم الأخلاقية، أم في جوانبه المتطورة والمتغيرة كالإبداع، والفن، والأدب، والإنتاج العلمي وغيرها من الأفعال الثقافية المتطورة، والتي هي أسرع تغيرا ومواكبة للمرحلة التاريخية التي مر بها المجتمع.

1- حدود الهوية الثقافية في المجتمع التواتي :

إن ما يفصل بين مجموعتين أو أكثر عرقيتين ثقافيتين في المجتمع التواتي، ليس الاختلاف الثقافي كما يتصوره الثقافيون، إذ يمكن للجماعات أن تعمل تماما وفي كنفها شيء من التعددية الثقافية، ويعود السبب في هذا الفصل أي وضع الحد إلى إرادة الجماعة في التمييز، واستخدامها لبعض السمات الثقافية كمحددات لهويتها النوعية، ومن شأن الجماعات القريبة من بعضها ثقافيا أن تعد نفسها غريبة تماما عن بعضها بعض بل ومتعادية حينما تختلف حول عنصر في المجموعة الثقافية.



فالعلاقات التي تقوم مدة طويلة بين المجموعات العرقية لا تؤدي بالضرورة إلى الإلغاء المتدرج للاختلافات الثقافية بل غالبا ما تنتظم هذه العلاقات بشكل تحافظ معه على الاختلاف الثقافي، بل أحيانا تزيد هذا الاختلاف عن طريق لعبة الدفاع (الرمزي) عن حدود الهوية، لكن هذا لا يعني أن الحدود لا تتبدل، وكل تغيير يصيب الحالة الاقتصادية أو السياسية من شأنه التسبب في إنزياحات الحدود، ودراسة هذه الإنزياحات ضرورية إذا أردنا تفسير تنوعات الهوية، وبالتالي تحليل الهوية لا يمكن أن يكتفي بمقارنة تزامنية، بل عليه أيضا أن يخضع لمقارنة تطورية.

2- الهوية المعمارية وثقافة المجتمع التواتي:

إن مفهوم وثقافة كصفة جوهرية، اتسمت بها الثقافة التواتية المحلية، وارتكزت أساسا في اهتمام الإنسان التواتي وتركيزه النظري والعملي على ماهو موضوعي ومرتبطة بتلبية احتياجاته المحلية الضرورية، وميله إلى البساطة والتجريب العقلاني في التفكير والسلوك، والهوية الثقافية تشكل القاسم المشترك في تفاصيل الحياة الاجتماعية، والمادية، والروحية للمجتمع التواتي سواء كان ماضيا أو حاضرا، حيث أن سلوكهم ومعتقداتهم كانت تتجه نحو تكريس اهتمامهم وقدراتهم، وطاقتهم إلى شؤون حياتهم العملية المرتبطة بالإنتاج المحلي، وكذا ما هو متصل بالواقع ومتطلبات حياتهم العادية والعملية. فالقصور والواحات هي واحدة من تلك الإبداعات الفنية للثقافة التواتية، فإذ ما ألقينا نظرة على إقليم توات، نجد عبارة عن أرخبيل للقصور والقصب الطينية المتناثرة في الصحراء، والمتمثلة في لمسات وإبداعات الإنسان التواتي الثقافية، على امتداد أزيد من سبعمائة كلم، تم بناءها من الطين والحجارة في شكل مربع، والمحاطة بمجدار خارجي سميك، ذات المدخل الواحد، معبرة بشكل واضح عن بصمته الثقافية، والتي لا تزال بقايا من أطلالها موجودة بالمنطقة إلى يومنا هذا، وبساتين النخيل المترامية الأطراف، التي كانت مصدر رزق أهل المنطقة سابقا ومتنفسهم حاليا. وكون الثقافة هي نتاجا محليا فقد رأى "الينور اماسيتي" أنها تمثل مجموعة المعلومات التي يقوم عليها نظام حياة الشعب، ولا بد أن تكون خاصة به، ونابعة من ظروفه، واحتياجاته، وبيئته الجغرافية، والتطور التاريخي الحضاري له³¹، لذا

كان من الطبيعي في ظل وحدة الثقافة ووحدة الأسلوب المعيشي، ونمط الحياة، والعادات، والتقاليد، وأنماط الملابس في الأوساط الثقافية المحيطة، وكذا أنماط العيش، وشكل العلاقات التي يعيشها الفرد، والتي صاحبت الارتباط الثقافي، والاجتماعي، والاقتصادي، ووحدة النظام الإنتاجي الزراعي جميعها كانت تتضمن المعاني الرمزية التي يمارسها المجتمع التواتي، وقد جاء هذا النوع من الهوية أي (البناءات الطينية) بدورها في المحافظة على الذاكرة المجتمعية المرتبطة بالقيم، و عكستها البيئة المحلية في القصور والبناءات الطينية عن طريق الصور البصرية، التي اختارها سكان المنطقة أو بالأحرى فرضتها ظروف الحياة، ودججوا هذه اللمسة المحلية بتلك القيم المحلية السائدة، وهذه العملية شكلت اندماج العناصر بصورة عفوية، ودججها لتعبر عن صورة اجتماعية موحدة، وبهذا عززت هذه الصبغة المعمارية، والبناءات الطينية من أصالة الهوية الثقافية على حد قول "روفانيل مونيو" **Rafael Monee**: إن الشكل المعماري يجب أن يدعم المعاني الموجودة في الذاكرة الجماعية³²، والتجربة التواتية تمثلت في الهوية وفي أشكالها العمرانية.

3- أهمية المكان في إبراز الهوية الثقافية للمجتمع التواتي:

إن القاموس الجغرافي لا يضع حدا فاصلا وواضحا بين المكان والمجال، والحيز، والفضاء، فكلمة **(space)** تعني باللغة العربية المجال وهو بدوره يعد جزء من المحيط البيئي الذي تحتله جماعة معينة، وكلمة **(place)** بالإنجليزية تعني ساحة أو فضاء أي مدينة للتجول والسير، والاحتفالات الجماعية، والتبادلات التجارية، أما الحيز الجغرافي **(Géographique Space)**: فيقصد بها المكان الجغرافي أو المحيط الحيوي، لهذا إن اختلاف المناطق لها تأثير محدود، حيث أن الإنسان الاجتماعي هو من يصنع للمكان قيمته ومكانته، فنحن لا نفهم الثقافة من خلال المكان، بل نفهم المكان من خلال الثقافة والفكر الذي يفسر الظواهر الاجتماعية، والظواهر الثقافية ويعكس الصبغة النهائية للثقافة³³.

فالقصور والقصبات، والفضاء الصحراوي ككل يعتبر الركيزة الأساسية للحضارة التواتية، التي يمكن تسميتها بحضارة القصور والواحات، فلم يكن باستطاعة

المجتمع التّوآتي بناء تجمعات سكانية كبيرة مثل باقي الحواضر المجاورة، نظرا لتمييز طبيعة المنطقة بالجفاف، فكان السّكان في حاجة دائمة لترحال والمهجرات، تتبعا لآبار المياه في المناطق المساعدة على إقامة الفقاقير، حتى أصبح نظام الفقارة مصدرا وجزءا مهما في الهوية الثّقافية للإقليم، التي لا يمكن الاستغناء عنها، ويظهر ذلك جليا في طريقة بناءها وكيفية تصليحها باستخدام عادات وتقاليد اتسمت كلها بلمسة تواتية محظّة. وفي الغالب تعود بدايات القصور إلى تلك الزّوايا، أين كانت تمثل مركز إشعاع علمي، ثم توسعت لتصبح قصورا، لتضم فيما بعد أبناء المؤسس أو العالم وبعض الوافدين إليها من طلبة العلم والفقه، أمثال الأسرة التّينيلانية وعلماء آخرين عرفتهم المنطقة خلال تاريخها الثّقافي العريق، والذي عن طريقهم حظي المجتمع التّوآتي القصورى بقفزة نوعية في تاريخ الثّقافة، من خلال تأثر المنطقة التّواتية بالحركة الثّقافية والعلمية، نتيجة الإرساليات والبعثات العلمية من قبل العلماء التّواتيين، ورحلات الحجيج السّائدة في ذلك الوقت من المغرب "فاس" والحجاز وتلمسان... وغيرها، والتي دامت هذه الرحلات لسنوات طويلة، فكانت بذلك من بواكير الإرساليات التي عادت بالخير العميم ثقافيا للمنطقة خلال ق12/هـ18م، وفأل خير في بناء هوية ثقافية متينة، حيث ساعدت هذه الرّحلات في تشكيل وإعطاء الهوية صبغة خاصة بالمنطقة، فكانت بذلك نقطة تحول وبداية لبوادر تكوين هوية ثقافية لمجتمع توات، تميزت بالازدهار والتّطور.

لقد كانت الطرق الصوفية إحدى معالم الرّحلات العلمية لعلماء المنطقة، فكان لها نشاط كبير على مستوى منطقة توات، لكونها بيئة مناسبة للعبادة والزّهد، فإلى جانب دورها في نشر أوراد الطّريقة، كان لها الفضل في القيام بنشاط علمي كبير، كما اهتمت بتحفيظ القرآن الكريم ونشره، واحتضانها للغة العربية والثّقافة الإسلامية، فأنفقت بسخاء على نشر تعاليمها وأورادها، وساعدت في القضاء على أمية الحرف والتّحفيز على طلب العلم في المنطقة³⁴. وأشرفت الكثير منها على مدارس وزوايا داخل الإقليم، وتتلّمذ على يد شيوخها الكثير من العلماء، فقلما تجد في إقليم توات عالما أو شيخا لا ينتسب إلى طريقة من الطرق الصوفية³⁵. لذلك نجد

أن الهوية الثقافية للمجتمع التّواتي ذات صبغة صوفية دينية بالأساس، فلا يكاد يخلو قصرا أو قصبه من وجود زاوية ، أو وليا، وزيارة³⁶، فالزاوية تعد الفضاء الأول الذي ولدت فيه وفطمت الهوية الثقافية للمجتمع التّواتي القصورى .

هذا فضلا على أن المجتمع التّواتي يزخر بكشكول متنوع من الرقصات الشّعبية الفولكلورية، وعلى حمولة مكنتزة للموروث الشّعبى الشّفوي، الذي تتمظهر فيه وبجلاء الأبعاد الثقافية للإثنيات العرقية المشكلة للتركيبية البشرية، التي استوطنت المنطقة في مرحلة مبكرة من عمارتها واحتطاطها، بما في ذلك البعد الأمازيغي، والعربي، والإفريقي ، مع ما يمكن أن يوحد من ترسبات يهودية ، أو ما تبقى من بقايا مسيحية³⁷، بالإضافة إلى رقصات تشجيعية تستعمل للتّحفيز أثناء الحرث كالتّويزة. ورقصة قرقابو³⁸ (العبيد) التي تظهر فيها هويته الإفريقية بشكل طاع، كما أن قرقة الحديد فيها، والمستعملة لإصدار الصّوت والتّتابع في نغمات الرقصة دلالة على رمزية تعبيرية عن الأغلال والسلاسل³⁹.

من خلف كل هذا وذاك، يبقى المجتمع التّواتي القصورى، مجتمعا معقدا بحكم طبيعته القصورية المغلقة والنّمطية القبلية السائدة فيه، إلا أن الإنسان التّواتي استطاع أن يبدع لنفسه هوية ثقافية خاصة في خطّم كل تلك التّراكمات الإثنيات المنصهرة ضمن إطار مجتمعي، حيث أصبح الآن فيه ينظر للآخر نظرة تكاملية، لا يمكن حذف أو تخيل غياب احدهما عن الآخر في ظل التّمظهرات الاجتماعية.

رابعا- علاقة العولمة بالإنسان التّواتي:

بحلول وميلاد العولمة وتحوّلها إلى حدث كوني ووجود بعينه، ولد ما يعرف بالإنسان العالمي، وهو ذلك الإنسان الذي يعيش في مجتمع كوني واحد أو بالأحرى طغت عليه صفة " الكونية الموحدة"، متحررا بذلك من كل قيد جغرافي وتاريخي، ومن كل القيود التي يمكنها أن تضيق أو تشل حريته، فالإنسان اليوم بفضل التّغيرات وإفرازات العولمة الجديدة، جعلت منه أن يعيش في إمكانيات جديدة للوجود والحياة، تنبثق على نحو لا نظير له من قبل، وهي لا تسفر عن عولمة المدن، والأسواق فقط، بل تفضي أيضا إلى عولمة الأنا⁴⁰.

فالعمولة لها تأثير كبير وخطير على الذات، باعتبارها تعيد صياغة الإنسان صياغة مادية، إذ تستبعد كل العناصر الكيفية، والمركبة، والغامضة، والمحفوظة بالأسرار، فيتحول الإنسان من كينونته المحلية إلى كائن وظيفي وأحادي البعد، ثم إن العمولة تفضل السهل على الجميل والأخلاقي، وتفضل التكيف على المقاومة والتجاوز، وبدلاً من الحديث عن إقامة العدل في الأرض والتغيير بفضل الحديث عن قبول الأمر الواقع⁴¹. ذلك أن العمولة تنظر إلى الإنسان نظرة مادية بدل النظرة المعنوية والروحية، إذ تغزوه بالتكنولوجيا ومختلف السلع، وتحاول أن تجعل العالم كله متسللاً ومتجانساً، وخاضعاً لنمط واحد، حتى يمكنها تسويق كل ما ينتج، فهي تجرد الإنسان بما يجعله متميزاً ومما يصنع إنسانيته، ويحفظ خصوصيته وهويته .

إن الوسائل والتقنيات المتطورة التي جلبتها العمولة معها، بقدر ما أعانت الإنسان بقدر ما ضيعته وغربته عن قومه وعولمته، وهذا ما حدث للإنسان التّواقي ، فمن قبل لم تنتشر مسألة أزمة الهوية الثقافية بهذه الحدة، بقدر ماهي منتشرة اليوم في زمن العمولة، حيث بلغت الإنسانية قمة التطور التكنولوجي، في المقابل تعرضت إلى قمة القلق الوجودي والتساؤل عن واقع ومآلات الإنسان، حيث أصبحت الهوية الثقافية للمجتمع التّواقي إلا ما تبقى ورسم على تضاريسها الجغرافية من أثار تاريخية بالنسبة لتلك البناءات الطينية، حتى أصبحنا نرى في كثير من الأحيان توجهات المجتمع إلى بناءات حديثة غربية وحضارية جدا، باستعمال أدوات ووسائل حديثة، حتى في تفاصيل وهندسية بيوته أو ما يسمى بديكوراتها المعمارية" أصبحت هي الأخرى تختلف وترقى إلى تفاصيل أحدث، وطغت عليها صبغة المقاربة المفتوحة للهوية من خلال الأخذ والتعاطي مع أفكار أجنبية والثقافات الأجنبية عبر وسائل العمولة "الأنترنت".

1- الثقافة الكونية:

ويبدو أن البشرية كلها أمام زحف كوني يتغير معه سير العالم عبر المصنوعات المادية من السلع و الأدوات والملبوسات، أو عبر الانتاجات الذهنية من الأساطير والعقائد من المثل والتّطريات، إذ يجري التعامل مع الواقع المعاصر بأدواته وأجهزته

الإيديولوجية من خلال عالم الآخر، إن "البيتزا" و"الكولا، و"ماكدونالد" و "الهامبرغر" مثلاً، التي انتشرت بسرعة مذهلة وبدون شعور في أوساط المجتمع التواطي، كلها مأكولات أصبحت تمثل تحدياً ثقافياً يؤثر على التركيبة الأسرية في المجتمع، لأنها مأكولات سريعة يندفع إليها شباب المنطقة يومياً في المطاعم وعلى الطرقات بعيداً عن تناول الطعام في جو عائلي اسري يسوده الترابط والتلاحم، والذي يتولد عنه الرعاية والحنان، وكذلك اللباس الغربي الذي يعكس ثقافة المجتمع وعالم الأزياء، الذي غزى المجتمعات بشكل ملفت وسريع، والنّاظر إلى ملبوسات الشّباب والنساء اليوم وما يتبع ذلك من تقليعات وتسريحات يجزم بالاستسلام لدعوة التّغريب⁴². بالإضافة إلى الوسائل الترفيهية و ألعاب الصّغار والكبار كلها أصبحت تجسّد ثقافة غريبة عن طريق إبراز شخصيات أسطورية، وترفيهية أو هزلية، لتبقى راسخة وماثلة في الأذهان من اجل تقليدها والتّمثيل بها " كسوبّر مان" والنينجا، و ميكى ماوس... الخ⁴³.

2- الإنسان التواطي في ظل ثقافة الصورة:

ذلك أن التطور المعاصر لتكنولوجيا الإعلام أدت إلى تحول الفرد في ظل ثقافة الصّورة من خلال تفرقه بين الإنسان المرآت والإنسان الشّاشة، لأن الإنسان المرآت هو الذي ينعكس في الآخر من خلال التّواصل والتّفاعل المتبادل، أما الإنسان الشّاشة فهو العارض للموضات والكاشف في سلوكه عن ثقافة الاستهلاك وهو شاشة عرض لها، ويرى "بودريار" أن القرن العشرين شهد تحول الإنسان من كونه إنسان مرآت لوقائع الشّاشة إلى إنسان شاشة بحذ ذاتها، والفرق بينهما أن الإنسان قبل عصر الميديا كان في مواجهة الأنّا من خلال علاقة تبادل وتفاعل، حيث تنعكس أفعال الأنّا على الآخر والعكس أما مع الإنسان الشّاشة، فتغيب العلاقة المباشرة ويتحول الإنسان نفسه إلى النموذج الأساسي لعصر الميديا، وهو بدوره شاشة حيث يصبح عارضاً للموضات أزياء ولأنماط من الحياة أعدها له المجتمع الاستهلاكي سلفاً، وهنا تختفي العلاقة الانعكاسية التي تتضمن التّفاعل ولا يبقى إلا ذلك الإنسان العارض والمؤدّي لادوار محددة، كما أن الميديا اليوم أصبحت تمارس عمليتي التفتيت والتّشمل معاً، فهي مجزأة ومشمّلة في الآن نفسه، لا تشتغل على الفرد وحده ولا

على الجمهور وحده، لأن الفرد لوحده ليست له أهمية بالنسبة للإعلام، ولأن الجمهور ليس كيانا قائما بذاته، بل هو مكون من مجموعة من الأفراد، أي أن الميديا تعامل الفرد على أنه جزء من جمهوره، وتعامل الجمهور على أنه ليس إلا مجموعة من الأفراد، وهذا يعني أن الميديا لا تبرز من الفرد إلا ماهو شائع وقياسي ومشترك مع الأفراد الآخرين. أما ما يجعله فردا مميزا ومختلفا، فالميديا تتركه جانبا أو تلغيه، وبذلك يتم ادماج الفرد في الجماعة وإضفاء الطابع العادي عليه، فلما يعامل الفرد على انه جزء من الجمهور، تضعف مقاومته لتأثير الميديا، الذي توهم بأنه هناك جمهورا مؤثرا في حين انه هو الفاعل الحقيقي، فالمشاهد للتلفزيون أو المستمع للإذاعة على الرغم من انه يمكن أن يكون وحيدا ومنعزلا بالفعل أثناء مشاهدته أو استماعه، إلا أن الميديا تمنحه الإحساس بأنه ليس وحده، وانه دائما جزء من كل اكبر منه هذا الإحساس، هو إحساس فبركته وسائل الإعلام والاتصال⁴⁴.

خامسا- الخاتمة:

وفي الأخير يمكننا القول أن الهوية تعد من أهم السمات المميزة للمجتمع، فهي التي تجسد طموحاته المستقبلية، وتبرز معالم تطوره من خلال سلوك الأفراد وانجازاتهم في مجالات مختلفة، بل وتنطوي على مبادئ وقيم تدفع الإنسان بدوره إلى تحقيق غايات معينة، فالانتماء إلى كيان ثقافي يعد حاجة نفسية واجتماعية ضرورية لا غنى عنها بالنسبة لأي إنسان في العالم، ونادرة هي تلك الكيانات التي تعرف حالة من الاستقرار، لأن جميعها الآن تشهد تحولات فعلية حسب وتيرة وإيقاعات العولمة الثقافية، ويبدو أن المجتمع التّوآني هو الآخر اخذ نصيبه من آثار العولمة الثقافية بفعل الميديا وممارساتها اليومية، نتيجة أسباب ونتائج أفرزتها الظاهرة أبرزها:

- عدم التركيز على ترسيخ مفاهيم وقيم الثقافة المحلية للمجتمع التّوآني، خصوصا في ظل مواجهة مفاهيم الفوضى والإباحية والضّياع في وسائل الاتصال الجماهيري، ونتيجة لذلك تعرضت جوانب كثيرة من الثقافة المحلية إن لم نقل عنها طمست في ظل التّشوهات واختلاطات المفاهيم المستحدثة كالعادات والتقاليد والسلوكات و

الألفاظ الجديدة أو الأجنبية منها السائدة في أوساط المجتمع التواتي ، فنجد قسم كبير منها هو تقليد لقيم وسلوكيات أجنبية بهدف التطور والتقدم.

- الفراغ الثقافي في مختلف المجالات، والذي تبدو مظاهره فقط في الاهتمام بالقشور والتركيز الشديد على بعض القضايا الفرعية والثانوية ضمن برامجها، فنجد معظم برامج وسائل الاتصال الجماهيري المحلية في إسراف بالغ لبرامج الترفيه والأغاني، حيث تحتل هذه البرامج مساحة كبيرة مقارنة بالبرامج الثقافية.

- عدم توافر برامج ثقافية محلية ترقى إلى منافسة المنتج الإعلامي المستورد، إلا ما وجدناه يندرج ضمن النسخة العربية الثانية بعد نظيرتها الأجنبية، مما أدى هذا الفراغ إلى الاعتماد على ما يرد من الخارج لتغطية العجز المعيب في البرامج المحلية، والذي بدوره ساهم هذا النقص في استيراد أكثر إلى ما هو أجنبي عبر الرسالة الإعلامية .

- التركيز على الطابع الإعلامي الدعائي، مما أدى هذا التركيز المفرط إلى تشكيل قيم ثقافية وتربوية واجتماعية هشة ومتغيرة وفقا لتغيير المصالح والمواقف والأهواء.

- إن العولمة تستند استنادا مباشرا إلى الحضارة الغربية المعاصرة التي توجهها مبادئ اللادينية الوضعية بالأساس، وباعتبار الميديا من وسائلها العالمية، فإن محتواها حتما هو تشجيع للحياة المادية والإلحادية عبر شبكاتها بأساليب ووسائل في غاية التأثير في النفس الإنسانية.

الهوامش:

¹ - خالد بن عبد الله القاسم، العولمة وأثرها على الهوية، www.islamtoday.net بتاريخ 2016/04/11 ، بتوقيت 22:14.

محمد عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية ، ط1، دار نضضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر 1999، ص06²

³ - عابد محمد الجابري ، العولمة وأزمة الليبرالية الجديدة ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر ، بيروت ، 2009، ص28

⁴ - اسعد السحمراني ، ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة ، ط1، دار النفائس، 2002، ص82

⁵ - محمد عمارة ، مرجع سابق، ص06

⁶ - ابن منظور ، جمال الدين بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر ، 2008، ص21

- ⁷ -دوني كوش ، تر: قاسم المقداد، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، منشورات اتحاد كتاب العرب ، دمشق، 2002، ص68
- ⁸ - مالك بن نبي ، تر: عبد الصبور شاهين، مشكلة الثقافة ، ط4، دار الفكر ، 1986، ص13
- ⁹ -مالك بن نبي، نفس المرجع، ص50
- ¹⁰ -نفس المرجع، ص26-63
- ¹¹ -مالك بن نبي، نفس المرجع، ص64
- ¹² -نفس المرجع، ص73-74
- ¹³ - د الجابري ، العولمة والهوية الثقافية... عشر أطروحات ، مجلة المستقبل العربي ، عدد 2/228، 1998، ص14
- ¹⁴ - اسعد السحمراني ، مرجع سابق، ص 82-83
- ¹⁵ - حمدي حسن الخروقي، دور التربية في مواجهة تداعيات العولمة على الهوية الثقافية ، مجلة دراسات في التعليم الجامعي، عدد 7، 2004، مركز تطوير التعليم الجامعي بجامعة عين شمس، القاهرة، ص 150-213
- ¹⁶ -المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الخطة الشاملة للثقافة العربية ، ط2، إدارة الثقافة ، تونس، ص21
- محمد إبراهيم عيد، الهوية الثقافية العربية في عالم متغير ، مجلة الطفولة والتنمية ، مجلد 17، عدد 3، 2001، ص111
- ¹⁸ - محمد عمارة، مرجع سابق، ص 08
- ¹⁹ - عبد العزيز بوسالم ، هل تموت الثقافة الوطنية في زمن العولمة ، مجلة أفاق ، عدد خاص بالعولمة الاقتصادية ، جامعة البليدة ، ص18
- ²⁰ - فهمي محمود حجازي، مجلة الهلال عدد مارس ، 2001، القاهرة، ص 87
- ²¹ - رضا عبد الواحد أمين ، الإعلام والعولمة ، ط1، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007، ص44
- ²² - صلاح عثمان ، الداروينية والإنسان : نظرية التطور من العلم إلى العولمة ، ط1، منشأة المعارف جلال حزي وشركاه ، 2001، ص194
- ²³ - صلاح عثمان ، نفس المرجع ، ص192
- ²⁴ - السيد ياسين، العالمية والعولمة ، ط2، دار النهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، 2002، ص136
- ²⁵ - نفس المرجع، ص136
- ²⁶ - السيد ياسين، نفس المرجع، ص137
- ²⁷ - علي حرب ، العالم ومأزقه: منطق الصدام ولغة التداول ، ط1، المركز الثقافي ، الدار البيضاء ، 2002، ص 105، 108

- ²⁸ - عبد الرزاق بلعقروز، تحولات الفكر الفلسفي المعاصر : أسئلة المفهوم والمعنى والتواصل، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008، ص ص 262—263.
- ²⁹ - الجماعة التّواتية القصورية: هي تلك الجماعة التي تقطن في إقليم توات من ولاية ادرار بالصحراء الجزائرية. سميت بالمجتمع التواتي نسبة إلى الإقليم التواتي الذي تقطن به وسميت بالقصوري نسبة إلى البناءات والمساكن الطينية القديمة على شكل تجمعات سكنية صحراوية في شكل قصور.
- ³⁰ - مشاري عبد الله النعيم ، هوية العمارة والمدينة السعودية في عصر العولمة ، ص 2-5
- ³¹ - مشاري عبد الله النعيم ، الحديث في الهوية المجتمعية للمعماري العربي ، مجلة البناء السنة السادسة والعشرون ، 2006، ص
- ³² - مشاري عبد الله النعيم، نفس المرجع
- ³³ - مبارك بن الصافي جعفري، العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12 هـ ، ط 1، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر ، 121، 2009.
- ³⁴ - الطرق الصوفية: هي أنواع الطريقة القادرية والطريقة التيجانية (انظر كتاب مبارك بن الصافي الجعفري، العلاقات الثقافية بين توات والسودان ، مرجع السابق، ص 121)
- ³⁵ - الزبارة: وتعني الوعدة في بعض المناطق ومأدبات تقام في القصور تبركا بالأولياء الصالحين بالمنطقة من كل سنة
- ³⁶ - الحاج احمد الصديق، رقصة أهليل قورارة من نمطية الصورة المسلية إلى رمزية الوظيفة التعبيرية ، ملتقى أهليل، تميمون ، ادرار، الجزائر
- ³⁷ - قرقابو: هي أقدم الرقصات الموسيقية الفلكلورية في المغرب العربي عامة وفي منطقة توات خاصة ، تنبئ الشباب بموئتهم المحلية المترجمة من قبل نغمات عذبة منسجمة ، تنبعث من صميم الآلات الحديدية التي يحملونها ، كما تعرف برقصة الديوان في مناطق أخرى،
- ³⁸ - الحاج احمد الصديق، المرجع السابق
- ³⁹ - علي حرب ، حديث النهايات : فتوحات العولمة ومآزق الهوية ، الدار البيضاء، 2002، ص 106
- ⁴⁰ - سوزان حربي، العلمانية والحداثة والعولمة : حوارات مع الدكتور عبد الوهاب الميسري، ص 295
- ⁴¹ - عبد الإله بلقزيز ، العولمة والممانعة ، منتدى المعارف ، بيروت ، 2011، ص 42
- ⁴² - طنبور يكن، العولمة ومستقبل العالم الإسلامي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، 2000، ص 44
- ⁴³ - اشرف حسن منصور ، الفلسفة وإيديولوجيا الإعلام : إسهام الفكر المعاصر في دراسة وسائل الإعلام، الحوار المتمدن ، عدد بتاريخ 2016/04/14، بتوقيت: 23:05، www.MARSCIST.23:05، 2010، 5/27/3016